

بسم الله الرحمن الرحيم

برنامج حياة الشباب في صدر الإسلام

الحلقة الحادية والثلاثون بعد المائة

ابن القيم (رحمه الله)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الأولين والآخرين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :-

أيها المستمعون الكرام، معشر الشباب ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نقف اليوم مع حياة علم من أعلام الإسلام ، ممن برع ي حدثاته سنه ، فنفع نفسه ونفع الله به المسلمين ، إنه محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الحنبلي .

كان مولده سنة إحدى وتسعين وستمائة ( ٦٩١ ) ، ونشأ ابن القيم (رحمه الله) في بيت علم وصلاح ، فقد كان أبوه صالحاً عابداً غضافة إلى كونه عالماً قيماً على مدرسة الجوزية ن وكانت دمشق التي نشأ بها ابن القيم حاضرة العلم آنذاك .

كل ذلك ساعد على توجه ابن القيم (رحمه الله) إلى طلب العلم في حدثاته سنه ، حتى أنه سمع العلم من مشايخه وهو صغير جداً في حدود السادسة من عمره ، وذلك أن من جملة شيوخه الشهاب النابلسي العابر، الذي توفي بعد ولادة ابن القيم بست سنين، وقد تحدث التلميذ عن شيخه قائلاً : «سمعت عليه عدة أجزاء ، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم على يديه لصغر السن واخترام المنية له رحمه الله .

وسمع ابن القيم (رحمه الله) صنوف العلم على عدد من المشايخ ، وكان جرئ الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وكان له حظ عند الأمراء المصريين.

واعتقل مع شيخه ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدره، فلما مات أفرج عنه، وامتحان مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه، حبس مرة لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل.

وقد لازم ابن القيم شيخه ابن تيمية وهو ي فترة شبابه ن وتوفي الشيخ وما زال ابن القيم (رحمه الله) شاباً .

ولقد اعجب ابن القيم (رحمه الله) بشيخه اعجاباً شديداً ، وتأثر به كثيراً فلزمه باستمرار حتى صار ألمع تلاميذه وأشهرهم ، واقتزن اسمه باسمه ، فحيث يذكر ابن تيمية يذكر بجانبه تلميذه النجيب ابن القيم ن حتى عده بعض العلماء دليلاً علمياً على سعة علم ابن تيمية (رحمه الله) ، حتى قال أحدهم : «ولو لم يكن من آثاره إلا ما اتصف به تلميذه ابن قيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلاً عل ما قلناه» أي من سعة علمه .

ومثل هذا قال ابن حجر : «ولو لم يكن للشيخ تقي الدين إلا تلميذه الشيخ شمس الدين صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته » .

ولقد سار ابن قيم (رحمه الله) على منهج شيخ ابن تيمية في الرد على المخالفين واعترف له بالفضل عليه في ذلك، حيث ذكره في عدة أبيات من نونيته قال فيها :

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| جربت هذا كله ووقعت في   | تلك الشباك كنت ذا طيران  |
| حتى أتاح لي الإله بفضله | من ليس تجزيه يدي ولساني  |
| فتى أتى من دار حران فيا | أهلاً بمن قد جاء من حران |

أخذت يده يدي وسار فلم يرم حتى أراني مطلع الإيمان

ومنهج ابن القيم مع شيخه (رحمهم الله) فيه درس للشباب مع مشايخهم وذلك بالحرص على ملازمتهم وتفريغ أوقاتهم لذلك ، والحرص على الانتفاع بعلمهم والأخذ عنهم ، والثناء عليهم وتقديرهم وإجلالهم ، ولكن دون تعصب ، فغذا حصل من المشايخ خطأ يخالف الكتاب أو السنة فإن الحق باتباع الكتاب والسنة ، وليس باتباع القائل أياً كان ، لأن من الشباب من تعمى بصيرته فلا يعرف من الحق إلا ما قال به الشيخ الفلاني . فإن الحق يعرف بالكتاب والسنة ولا يقال بأقوال الرجال .

ولقد أثنى على ابن القيم تلميذه ابن كثير بقوله : «سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والاصلين ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمة إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا وكثرة الابتهاال وكان حسن القراءة والخلق كثير التودد لا يحسد أحدا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد وكنت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا واقتنى من الكتب مالا يتهيأ لغيره تحصيل عشرة من كتب السلف والخلف» .

وكان ابن القيم (رحمه الله) إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي . ومن حبه لجمع الكتب حصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلاً سوى ما اصطفوه منها لانفسهم .

ورث ابن القيم (رحمه الله) علماً جماً تمثل في كتبه العديدة التي ما زال الناس ينتفعون منها إلى اليوم ، ومن تلك الكتب : بدائع الفوائد، وزاد المعاد ، وجلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ومفتاح دار السعادة، والروح، وحادي الأرواح ، والصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة وتصانيف أخرى، وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وهو طويل النفس فيها، معظمها من كلام شيخه يتصرف في ذلك وله في ذلك ملكة قوية ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها. ومن نظمه قصيدة تبلغ ستة آلاف بيت سماها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية وهو القائل .

ومع ما كان لابن القيم (رحمه الله) من المكانة العالية إلا أنه شديد التواضع ، ومما يدل على تواضعه أبيات قال فيها :

|                        |                             |
|------------------------|-----------------------------|
| بنى أبي بكر كثير ذنوبه | فليس على من نال من عرضه إثم |
| بنى أبي بكر غدا متصدرا | يعلم علما وهو ليس له علم    |

بنى أبي بكر جهول بنفسه جهول بأمر الله أنى له العلم

بنى أبي بكر يروم ترقيا إلى جنة المأوى وليس له عزم

إلى آخر الأبيات بان فيها تواضعه وعدم اغتراره بعلمه ، واحتقاره لعمله ، ورجاؤه  
غفران ربه ، وهذه سمة أهل العم العاملين بعلمهم . وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين  
وسبعمائة ( ٧٥١ ) رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

أيها المستمعون الكرام ، معشر الشباب ، في الختام نسأل المولى جل وعلا أن يلهمنا  
رشدنا ، وأن يوفقنا لصلاح ديننا ودنيانا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة  
والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وإلى أن ألقاكم أستودعكم الله ،  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.